الفصل السابع

دراسة أكاديمية فى الصراع العربى الإسرائيلى

نوفمبر ١٩٧٨

و.. هذه هى الشخصية اليهودية « الثانية » التى لا تزال تنطبع فى نفسى وذاكرتى منذ رحلة الندوات الأمريكية التى عبرت بنا الولايات المتحدة من الشرق إلى الغرب .. مروراً بالجنوب ، مع مطلع ١٩٧٨ .

وشخصية هذه المرة من نوعية تختلف تماماً عن شخصية « الملياردير » جوليوس ليفجنستون ، الشيخ المتعصب لإسرائيل الذى قد تحوله كلمة تعاطف صادق إلى ما يشبه الطفل الودود ، أو بكلمة أخرى قد يتحول هو بشخصه إلى معسكر كامل من سوء الظن والشكوك .

أما شخصية هذا الأسبوع فهى نوعية تختلف .. سيدة شابة : جيل كويللر رابينز التزامها بعيد عن العاطفة ، عقلانى بحت ، نتاج ذهن متوقد يعمل بلا توقف .. لذلك فإن انتماءها أخرس ! ولكنّ عينيها تكشفان عن شخصية حذرة مترددة ، فيها شىء من التعقيد ، وبعيدة عن أى زيف أو تكلُّف ! تعارفنا فى (أطلنطا) عاصمة ولاية جورجيا فى الجنوب عقب أولى ندواتنا ، وجدتها أمامى . لم تكتف بالتحية والمجاملة كما يحدث غالبًا فى أعقاب مثل تلك اللقاءات .. ولكنها طلبت أن نلتقى ليكون لنا معاً حديث خاص .. سألتها : أصحفية ؟ .. هزت رأسها بالنفى ..

دعوتها إلى الفندق بغير حماس وأنا أتمنى ألاّ تأتى ، فإن من وضعوا برنامجنا قد حرصوا دائماً على أن يستنفدوا طاقاتنا كاملة مع نهاية كل مساء .. ولكنها خيبت رجائى وجاءت . وجدتها بانتظارى فى بهو الفندق لدى عودتنا من حفل عشاء استنفدنا فيه آخر ما تبقى لنا من طاقة الذهن . وعدت خاوية تماماً ، خامدة مثل جهاز الراديو الأصم الأبكم بعد أن نفدت منه شحنة البطارية .. وكان زوجها يصحبها .. وجلس على بعد قريب منا يغالب الإرهاق بكأس بين يديه .. يبدو كمن يؤدى مهمة اصطحابها فحسب .. فالحديث الذى يجرى بيننا لا يهمه فى كثير أو قليل ، وبدأت أستمع إليها فى صمت وفى صبر ، من باب المجاملة والأدب .. وشيئًا فشيئًا استحوذت على اهتمام لم أعرف كيف تجمَّع فى تلك اللحظات لدىّ .. وجدتنى أشاركها الحديث بكل يقظة وتوقد ، وأشعلت ذهنى الذى كان قد خمد بوهج أفكارها ، مثلما تملأ البطارية الفارغة من شحنة وتوصيلة فتتقد ويشتعل الموتور .. وإلاّ فكيف استطعت أن أستغرق فى كل ذلك الحديث الطويل الذى امتد وتوغل حتى الساعات الصغيرة من الصباح ، وزوجها على بُعد خطوات منا فى بهو الفندق ، وقد استغرق فى سبات عميق !

شىء واحد كان يحيرنى .. هل هى يهودية ؟ .. أو مجرد مواطنة أمريكية ذات اهتمامات سياسية ؟ . ولم أشأ أن أسألها .. انتظرت منها أن تصرح هى ولقد انتظرت طويلا .. كان حديثها لا يعكس فقط ثقافة ووعيا بما يدور ، وإنما كان يؤكد الدراسة ، بل الاحتراف ، مع أنها مجرد زوجة – على حد ما قالت لى – وترعى ابنتين وتساعد زوجها هذا فى إدارة المطعم الذى يمتلكه .. كان تناولها للأمور لا يشى بأى مشاعر ذاتية خاصة ، كان تناولاً علميًّا مجردًا من أى عواطف أو ألوان .. كانت تتحدث عن الفلسطينيين بذات النبرات العالية الرنين التى تتناول بها تعبيرًا من الصهيونية أو الأبعاد التى اكتسبتها من الأحداث الاجتماعية والسياسية والنفسية التى

طرأت على المجتمع الأوربى خلال القرنين الأخيرين .. وضايقنى هذا الغموض منها ، إلى أن انفرجت فجأة بعد مرور حوالى ساعتين من بدء الحديث . وفجأة قالت لى بتردد واستحياء : ربما قد أدركت أننى يهودية .. قالتها بصوت خافت يتعارض مع نظراتها المتسائلة الفضولية التى تصوبها من حين لآخر إلى أعمق أعماق تحاول أن تستشف منى شيئاً ، وكأنها تبحث عن غير ما تسمع ، أو كأننى أبطن شيئًا مكنوناً ، وأبدى لها شيئًا آخر .. قلت لها : لقد بقيت ساعتين أنتظر منك هذا « التصريح » قالت وقد أبعدت عينيها بعيدًا لأول مرة دون أن تحاول اقتحام أعماق : « لقد خشيت أن ينتهى تعارفنا من قبل أن يبدأ » .. ودهشت .. ولكنها ذكرت لى عن تجارب لها سابقة .. مع بعض من تعارفت بهم من المصريين ، وقد كانت تعمل يومًا قبل زواجها فى الأمم المتحدة سكرتيرة لرئيس أحد الوفود .. وزارت مصر فى عام ١٩٦٤ ، وكانت تقابل بالترحاب والإقبال كأمريكية » وإلى أن يدركوا أننى أيضاً يهودية ... عندئذ تتغير الأمور حالا والنظرة .. ولا أعود أرى سوى الحذر ، ولا أقابل إلاّ بالشكوك » . قلت لها .. الحذر والشكوك كانت علامة مميزة للمجتمع المصرى فى ذلك العهد من الستينيات .. ليس تجاه الأجنبى عموماً واليهودى خصوصاً ، بل بين المصرى والمصرى فى كثير من الأحيان .. فإن للمعاناة أشكالاً وأنواعاً .. فقد عرف اليهود اضطهاد الأغلبية للأقلية ، ولكن يوجد أيضًا أنواع من اضطهاد الأقلية للأغلبية ، وهذه هى معاناة الشعوب التى تُحكم بالإرهاب وبالدكتاتورية ..

وتواعدنا على اللقاء فى اليوم التالى . وعلى مدى الأيام الثلاثة التالية التى استغرقتها الزيارة .. كانت تأتى إلى الفندق فى الصباح وتنتظرنى على مائدة الإفطار فلا تشارك بأكثر من فنجان من القهوة ، وتظل تتحدث وتتناول إفطارها بصوت عال وتحكى عن نفسها المزيد . وفى الليل أجدها لدى عودتى إلى الفندق

بانتظارى .. ولم تعد تصحب زوجها هذا الذى سرعان ما ينعس ويحرجها عندما يسقط رأسه على صدره . وأثارت تندر زملاء الرحلة وتعليقاتهم .. « ماذا تريد ابنة العم تلك » ؟ .. أهذه هى ما يعرف « باللزقة الأمريكانى ؟ » .. ولكنى كنت أجد متعة حقيقية فى حديثها ، وكانت لديها قدرة غريبة فى اختراق ما وراء المنظور السياسى الراهن ، واجتلاء تصورات عصرية تحمل أبعاداً قد نختلف فيها ولكنها تستحق الاهتمام والمناقشة ..

وخيل إلىَّ وكأن لا شغل لديها على ما يبدو سوى الصراع العربى الإسرائيلى ، وأن لا مشكلة فى حياتها سوى ما يسمى بمشكلة الشرق الأوسط !

قالت إنها مادامت تقوم بواجبها الأكمل كزوجة وأم فإن من حقها أن تزاول اهتماماتها هى .

ولا بد لى أن أقرر أنها إحدى الشخصيات النسائية النادرة التى قابلتها حتى الآن . وعندما أعود من وقت لآخر وأقرأ فى رسالتيها اللتين تقدمت بهما إلى جامعة جورجيا ، وإحداهما فى اتجاه تجاوز الأيديولوجيات المتعارضة إلى مجتمع إقليمى يقوم من دول الشرق الأوسط .. بدأت فيها بحثاً علمياً مركزاً لكلتا الأيديولوجيتين : القومية العربية ، والصهيونية . وخرجت بنتيجة ، بل بالأصح تجعلك تخرج بنتيجة غريبة وهى أن كُلاً من الشعب الفلسطينى المشتت الآن ، والشعب اليهودى الذى استقر جزء منه على ما يعرف اليوم بدولة إسرائيل .. كلاهما وجهان لعملة واحدة .. كل ما هناك أن المعاناة اليهودية والمأساة قد عرفت طريقها إلى اليهود قبل قرن من الزمان .

نماذج أمريكية من اليهود من الماضى إلى الغد !

نوفمبر ١٩٧٨

كلاهما وجهان لعملة واحدة . كل ما هناك أن الإسرائيليين قد سبقوا الفلسطينيين فى الانصهار فى المأساة وذلك « بمرحلة زمنية » ولكنها دورة ، وللعجب تكاد أن تتكرر مرة أخرى مع الفلسطينيين بكافة المعالم ، وإلى نفس النتائج ، وتتكرر المطالب وبذات الشعارات ، وبمثل ما حمل اليهود منذ ما يقارب قرناً من الزمان .

كل ما هناك أن اليهود كانوا دائماً عمليين واقعيين ، وقبلوا وسعوا إلى كل فرصة متاحة . وبقى أن يعى الفلسطينيون الدرس جيداً ويدركوا أنهم لو قبلوا الفرصة المتاحة فلسوف تقودهم حتماً إلى تحقيق الأمانى المشروعة لكل الشعوب ...

ومن الدراسة العلمية التى تقدمت بها السيدة الأمريكية اليهودية جيل .ك . رايبنز ، وحصلت بها على درجة الماجستير من جامعة جورجيا ، سأقدم بعض الأفكار التى تستحق الاطلاع عليها ومناقشتها ، ونحن فى مطلع عهد جديد من التناول العلمى للأمور ..

والهدف الرئيسى لهذه الدراسة هو محاولة بحث قيام مجتمع لدول الشرق الأوسط ، يكون قوامه التعاون الإقليمى ، وهو سمة هذا العصر الذى خلف عصر صراع القوميات .. أى بمعنى أكثر وضوحاً : هل يمكن إيجاد أيديولوجية إقليمية للشرق الأوسط تتعدى صراع القوميات ، ومشاكل الأقليات ، واختلاف نظم الحكم ، ويكون فيها التطلع إلى العصرية ، بالتعاون الاقتصادى الإقليمى – هو

البديل العملى لمفهوم « الوحدة » كفكرة لا يمكن تحقيقها عملياً إلاّ فى حدود نادرة !

« هل يمكن أن يباشر الإسرائيليون والفلسطينيون – فى حالة ما إذا شكّلوا دولة – وكذلك كل أصحاب الأدوار الأخرى فى الشرق الأوسط هل يمكنهم أن يباشروا مراحل نموهم وتطور مجتمعاتهم بدون التعدى على حقوق الآخرين ؟ .

فى نقطة ما من وقت ما يمكن تحقيق مثل ذلك ، وكما هو الحال فى أوربا التى عرفت حربين مريرتين على متسع تلك الرقعة الأرضية الهائلة ... » .

إنه ليس موضوعاً هيناً ولكنه يتحدى على الأقل طموح الفكر .. ولزاماً علىّ ، وقبل أن أصل إلى ما انتهت إليه فلابد أن أطرح الموضوع بأبعاده جميعًا : التاريخية ، والنفسية ، والسياسية ، مع الإيجاز والتركيز .

وهى تبدأ فتقر أولا أنها – أى الصهيونية – كحركة وأيديولوجية محور للاختلاف الشديد ، بل التعارض .. كذلك يوجد خلط كبير حول مصدرها وأهدافها ومبادئها .. إنها عند معتنقيها تتخذ شكلاً نبيلا ، فهى حركة التحرير للشعب اليهودى . وهى عند مناهضيها أيديولوجية عنصرية تستحق الإدانة والتنديد .. ولأن الصهيونية قابلة للانتقاد من البعض والتمجيد من البعض الآخر فإنه يبقى السؤال الهام التالى الذى تطرحه وتحاول أن تجيب عليه :

هل تستطيع الصهيونية أن « تتكيف » بحيث تستطيع أن تؤدى رسالتها لليهود وتكون مقبولة من الطرف الآخر ! وبمعنى أوضح تتساءل : هل العرب يعترضون عليها من حيث التطبيق الإسرائيلى لها ، أو أن الاعتراض هو على الصهيونية كأيديولوجية فى حد ذاتها ؟

وتُناقش هى الصهيونية وفق هذا المفهوم :

إنها حركة العودة باليهود إلى أرض إسرائيل (إيريز إسرائيل) أى أنها تقوم على

أساس وجود (شعب) يهودى يخضع منذ القدم ولايزال لنفس التراث والقيم والمعتقدات التى ترقى لديهم فى بعض الأحيان إلى مقومات القانون .. ووفق ذلك كان من الضرورى وجود دولة مستقلة ذات سيادة لهؤلاء الذين يودون العيش فيها أو الملاذ بها . ووفق ذلك فهى : حركة قومية لتقرير المصير .

وتعود دعائم « الصهيونية العصرية » ليس إلى تيودور هيرتزل كما هو شائع وإنما إلى ليون بنسكر الذى عاش فى الروسيا ونشر مؤلفه (التحرير الذاتى) فى عام ١٨٨٢ .

فقد كان أول من نبه إلى أن ظاهرة المعاداة للسامية التى نشطت فى أوربا عموماً وفى الروسيا خصوصًا فى أواخر القرن الماضى هى « ظاهرة نفسية » وليست ظاهرة اجتماعية . لقد عبر بنسكر عن المعاناة النفسية لليهودى كما يلى : إنه يتلخص فى الشعور بالغربة ، أى عدم الانتماء إلى أى مكان ثابت . وقد فسر ذلك على النحو التالى :

« طالما بقى اليهود .. الأمة الشبح » أى أمة بلا وجود طبيعى ، فلسوف يبقى هذا الشعور النفسى قائماً . ليس عند اليهود فقط ، بل عند الآخرين ، وهذا هو الأهم . إنه يقول فى عام (١٨٨٠) : نحن شعبٌ . شُعِّب . وحاولنا بإخلاص وفى كل مكان أن نذوب فى المجتمع الذى حولنا فلا نستبقى لنا سوى عقيدة آبائنا . ولكنهم لم يسمحوا لنا بذلك . لقد عشنا لأجيال وأجيال فوق أراضٍ اعتبرنا فيها دائماً غرباء . بل كثيرًا ما حدث أن أعتبرنا كذلك ممن جاء أجدادهم من بعد أجدادنا وأقاموا فيها . ولكنها « الأغلبية » دائماً هى التى تحدد مَنْ هو (الغريب) . وعلى ذلك يكون وجود اليهود (أقلية) فى كل مكان ، بلا أغلبية فى أى مكان وهو أمر غير طبيعى لأى (قومية) .. أن يكونوا ضيوفاً فى كل مكان وليسوا أصحاب ديار فى أى مكان هو معقد المشكلة ، ومثار الاختلاف بينهم وبين الآخرين ، هو بقاؤهم غرباء

دائمين. وعلى أساس من هذه المعتقدات توصل بنسكر إلى أن الحل الوحيد للمشكلة اليهودية هى أن يعيش اليهود على أرض تكون لهم ويتحولون إلى أمة (طبيعية) مثل باقى الأمم. أين تكون. لم يهتم مبدئيًا بمكان الاختيار برغم أن الروابط الدينية والعاطفية لم تكن لتخفى عليه بما تسميه التوراة (بإيريز إسرائيل) أو أرض فلسطين كما تعرفها الإنسانية على مر التاريخ .. انصب اهتمامه كله على إدراج طريق الخلاص وهو : الحكم الذاتى اليهودى.